خلال صوته، يتحرق ألما ومرارة على جهل الشعب وانخداعه بالزعامة التي تتلهى به:

أيها الشعب، يا أخا الجهل، هلا ... همت بالحق ذي السنى الوضاح؟
أنت في زورق الزعامة مجذا ... ف تلهث به يد الملاح
أنت في قبضة الامامة مسبا ... ح للاهي أنامل أو راح
فانفض النير عن كواهل ذل ... وارم بالقيد وجه باغ وقاح
وامض بعد الخمول في سبيل العيـ ... ـش عزيز الجناب، طلق الجناح
قبلما تصرح الليالي فما تنـ ... ـصاح الا عن مدية السفاح
تلك مني نصيحة فاذكرها، ... وادخرها لخطبك الرزاح

ومثل هذا اللوم العنيف نراه يصبه على مسامع شعبه في قصيدة «أمة تحتضر»[٤٥]، وفيها يهيب بالشعب أن يخلع عنه رداء الجهل، ويثب إلى العلم وثبة قوية تعيد من أمجاده ما غبر، وأن يهب للجهاد بعزم يروع مضاء القدر. وهو يؤمن بدور الشاعر وبكلمته الفاعلة تدوي في سمع الزمان:

وكيف بصبر على ليل جهل ... دجى بالملمات لما اعتكر!
فلا بد للشعب من صيحة ... يدوي صداها بسمع العصر

وتعلو صيحته وهو يرى مع شعبه تآمر الدول على وطنه المقدس الجميل، يوم اتخذت الأمم المتحدة قرارها بتقسيم فلسطين في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، فيتجسد أمام ناظريه الهول المحيق بالبلاد الذي طالما نبه اليه، إذ طفح الكيل وطمى السيل. ويأتينا صوته من حيفا مخاطبا أمم الشرق في «صوت من فلسطين»[٤٦]:

فانفضي كلة النيام وهبي ... من سبات الكرى وليل الهجود
وأثيري، فالشر صَرّح عريا ... كل شيخ... وكل طفل وليد

ونحس لديه بنفس «نيتشه» يتردد، وهو يتوخى العظمة والقوة في الانسان لمصارعة الزمان:

امض يا شرق للجنون وحيا ... ما أرى اليوم ذا الحجا بالرشيد
ان يكُ الحلم بالاباء حميدا ... فهو عند الهوان غير حميد
أنت في حاجة الى كل حس ... يقدح بالزند في صفا الجلمود
هل رأيت النهى تنيل منالا ... بالأماني الكذاب او بالوعود؟
فادرعها قوى تدك الرواسي ... لا تخف صولة الزمان العتيد
يا ديار الاسلام، يا مشرق النور ... ومهد الهدى، وغاب الأسود
حلم «صهيون» ان تكوني رحابا ... مفسحات للكه المفقود...
فاحمليها معاولا ذات عزم ... قُدَّ من طفرة القضاء العنيد
واحفريها مهاويا مظلمات ... ما لداجي اغوارها من حدود
وادفني الحلم... والذي حلم الحلم ... وراء الرجام... تحت اللحود

ويحس، من خلال الهبة الجماهيرية التي اعقبت إعلان هذ القرار، كأن ثورة ولدت على أرض وطنه. ولكنه، مثله مثل غيره، لم يكن قادرا على أن يحيط بكل ما يخطط ويجري في السر والعلن، وعلى كل المستويات في العالم، لنكبة وطنه. ومن خلال هذا الاحساس يخاطب صخرة الأقصى، ويقول للصهيونية: